

الهمة إلى الله

«الصح نفسك» وخصوصاً إذا كان الناصح فقيراً والمنصوح غنياً أو كان عالمياً والمنصوح عالماً ولو في نظر نفسه. فلا تسل عما يلقى الناصح من التعنيف والتوبيخ والسب إن لم يضرب ويحقّر!!

فلما تكبر الناس وفشا فيهم العجب بأنفسهم والغرور ورأى الناصحون من الأذى ما ضرهم ولم ينفع المنصوحين ترك أهل العلم النصيحة لأنها لا تنيل منهم، وأصبح أهل الدين في نظر الأغنياء وأهل علم الدنيا كالصغير على يسار العدد، لا قيمة له، بل أصبح وجودهم حالة وقذى في العيون وشجى في

الجلود حتى أصبح أحدهم يمثل بقول الشاعر:

(١)

سجالاً بهأسقي الذين أساجل
فلم أن قومي أكرموني وأنفقوا
كنت الأذى عما عشت عن حلمائهم
ولكن قومي عزهم سنفهاؤهم
وناضلت عن أعراضهم من يناضل
على الرأي حتى ليس للرأي حامل
وشورك في الرأي الرجال الأمثال

نظوه بالعدوان واختيل بالغنى

وإنما كان هوان أهل الدين عند أولئك المغرورين المفتونين ثقله دينهم وفحوى قلوبهم منه وجهلهم به وعدم تعظيمهم له، زد على ذلك طمع أهل الدين أنفسهم في أهل الدنيا وركوبهم إليهم وإظهارهم الحاجة والفاقة والحرص على ما في أيديهم.

ولو أن أهل الدين استغنوا عن أهل الدنيا كما استغنى أهل الدنيا عنهم وزهدوا فيما عندهم لكان قلوبهم مسموعاً، ورأيهم متبوعاً ومحترماً إذ كان

(١) الثاقب: شدّة الاعتلاء. «لسان العرب» (ثاقب).

الهمة إلى الله

الدين النصيحة (١)

هذا لفظ حديث صحيح عن تميم الداري (٢) وبمعناه عن جرير بن عبد الله رواه البخاري (٣) ولفظ الحديث قال: «بايعت رسول الله ﷺ على إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنصح لكل مسلم».

فدل الحديث على أن النصح لكل مسلم من الأمور المهمة حتى قرن بالصلاة والزكاة في المبايعه.

والنصح: أن تحرص على إيصال الخير لكل مسلم، وإبعاد الشر عنه بكل ما يمكن، ويدخل في ذلك تنبيهه للخير بركة سهواً أو عمداً وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر وتبصيره بعيوبه.

وقد قال العلماء في تعريف النصح بما يقرب مما قررنا وذلك (إرادة الخير للمنصوح له).

ولكن أصبحت (٤) كلمة (نصح) وما يشتق منها أثقل من الجبال على قلوب الناس وأسماعهم، بل اعتبرها كثير منهم سبياً! فإذا قلت لإنسان: يا أخي، أريد أن أنصحك؟ ابتدرك قائلاً من قبل أن يسمع حرفاً واحداً من نصيحتك:

(١) صحيحة أم الثوري العدد (٦١٧)، في ٨/ ٧ ١٣٥٦ هـ.

(٢) أخرجه مسلم (٥٥)، من حديث تميم الداري رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٥٧، ٥٢٤).

(٤) في الأصل «أصبت».

العلماء في القرون المفضلة كسفيان الثوري وابن عيينة والشافعي وابن حنبل وحسن البصري وأحزابهم^(١) تسمع نصائحهم، ويعمل بأقوالهم، ويصبرون على الضراء صبر الكرام؛ ويصومون النهار ويقومون الليل وتشبههم الكثرة، فأمثال هؤلاء حقًا كان يسمع نصيحهم، ويخشى خلافهم.

فقل لي - بريك - ماذا تعمل إذا كان الناس مقبلين على شهواتهم، تاركين أوامر ربهم كارهين للحق كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ﴾ [الزخرف: ٧٨].

إن أهل الشهوات يكرهون كل من يحول بينهم وبينها ولو كان ألطف من النسيم العليل وأعذب من الماء السلسيل. وهذا رسول الله ﷺ وهذه سنته أترامهم يحبونها ويعملون بها إلا فيما يوافق الهوى، ألم يقل رسول الله ﷺ: «إذا رأيت شحًا مطاعًا، وهوى متبعًا، وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخويصة نفسك»^(٢). الحديث أليس هذا هو الزمان الذي ينطبق عليه الحديث؟! ونقول في جواب ذلك: لا بد من النصح لكل مسلم وتحمل الأذى في ذلك وإلا بطل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصح المقرون بالصلاة والزكاة، وعلينا أن ننصح سواء قيل منا أم لم يقبل، وسواء أؤذينا في ذلك أو لم نؤذ، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللّٰهِ جَعَلَ فِتْنَةً لِلنَّاسِ كَعَذَابِ اللّٰهِ﴾ [المنكوت: ١٠].

(١) أي من صار على فهمهم، وليس مقصود الشيخ تكملة التعصب والولاء لهم، فانتبه.
(٢) ضعيف: أخرجه أبو داود (٤٣٤١)، والترمذي (٣٠٥٨)، من حديث أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي».

وكل ما قيل من تطاول الأغنياء على الفقراء وغير ذلك لا يمنع من النصح، لكن ينبغي أن يكون النصح سرًا للخواص، فإن إعلان النصح فضيحة، وتركه لنيل ما عند المنصوح من دنيا بخس واشتراء بآيات الله ثمنًا قليلًا.

فإذا تحقق الناصح من عدم قبول نصحه أو نزول ضرر به فله حينئذ أن يسكت وينكر بقلبه، والله الهادي إلى سواء السبيل.

